

الموضوعية: مفهوم نظري أم واقع عملي في كتابة التاريخ؟ "Objectivity: A Theoretical Concept or a Practical Reality in Historical Writing?"

عبد الرحمن بن عراج - أستاذ محاضر ب (bdalrhmnbnraj67@gmail.com)	التاريخ القديم	جامعة أحمد درايعية - أدرار
DOI :		

الإرسال: 2025/04/04 القبول: 2025/06/15 النشر: 2025/12/20

ملخص:

تعتبر قضية الموضوعية في كتابة التاريخ ذات أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية، حيث تؤثر على مصداقية التفسيرات التاريخية، كما تساعد على فهم كيفية إنتاج المعرفة التاريخية ويهدف المقال إلى استكشاف مدى إمكانية تحقيق الموضوعية في الكتابة التاريخية، ويسعى إلى فهم كيف يمكن للباحث التاريخي التعامل مع تأثير قيمه الذاتية على كتاباته. ويعترف المقال بصعوبة تجرّد المؤرخ من ذاتيته، حيث تتأثر كتاباته بأفكاره، ونشأته، وثقافته، وبيئته وي طرح المقال إشكالية أساسية حول مدى قدرة المؤرخ على التخلص من قيمه الذاتية ومعتقداته الأيديولوجية والفكرية، والبحث عن بدائل للموضوعية المثالية في حال تعذر تحقيقها بشكل كامل. **كلمات مفتاحية:** الموضوعية-الذاتية- الكتابة التاريخية -بدائل الموضوعية -المنهج التاريخي.

Abstract:

"The issue of objectivity in historical writing is of significant importance in historical studies, as it affects the credibility of historical interpretations and aids in understanding how historical knowledge is produced. This article aims to explore the extent to which objectivity can be achieved in historical writing and seeks to understand how a historical researcher can deal with the influence of their subjective values on their writings. The article acknowledges the difficulty of a historian detaching themselves from their subjectivity, as their writings are influenced by their ideas, upbringing, culture, and environment. It raises a fundamental problem concerning the extent to which a historian can eliminate their subjective values and ideological and intellectual beliefs, and the search for alternatives to ideal objectivity if it cannot be fully achieved.

Keywords : Objectivity, subjectivity, historical writing, alternatives to objectivity, historical methodology

مقدمة:

إنّ البحث العلمي هو عملية منظمة ومنهجية تهدف إلى اكتشاف المعرفة الجديدة أو تطوير المعرفة الموجودة، ومن خصائصه التميز الدقة والموضوعية والشمولية والقدرة على التحقق والتنظيم المنهجي.

وتعتبر الموضوعية من أبرز خصائص البحث العلمي، فهي الصفة التي تُكسب التاريخ مصداقيته وقيّمته كعلم، وهي التي تضيف عليه الصفة العلمية، ولما كان المؤرخ يعسر عليه أن يتجرد من صفات الذاتية والتي هي مزيج من أفكار المؤرخ ونشأته وتربيته وثقافته والبيئة التي يعيش فيها، فكانت من أهم الإشكاليات المنهجية في الدراسات التاريخية- كانت المواضيع الإقليمية أو وطنية أو اجتماعية أو اقتصادية أو تراجم شخصيات -في العصر الحاضر مشلكة الموضوعية والالتزام بالذاتية؛ فجاءت هذه الدراسة لتجيب عن الإشكال التالي: إلى أي مدى يمكن تحقيق الموضوعية في الكتاب التاريخية، وهل يمكن للباحث التاريخي أن يتجرد عن قيمه الذاتية ومعتقداته الأيديولوجية والفكرية ويلتزم بالموضوعية المثالية؟ وماهي بدائل الموضوعية في حال تعسر تحقيقها؟

1-تعريف الموضوعية:

لم يرد مصطلح "الموضوعية" في المعاجم اللغوية القديمة، في كتابات مؤرخي تاريخ الأديان من علماء المسلمين المتقدمين؛ لأنه مصطلح حادث، بل قد ارتبطت الموضوعية كفكرة مع المدرسة العلمانية التطورية في الفكر الغربي فهو مصطلح ينبثق من الفكر الغربي الحديث التي لها دلالات ومفاهيم مرتبطة بقيم وتصورات المجتمع الذي نشأت فيه، ونقلها إلى ثقافتنا الإسلامية وتاريخنا يعطي أحكاماً مضللة (باوادي، 2018، صفحة 242).

فقد ظهر في نهاية القرن التاسع عشر عندما نبه العالم الفرنسي "أميل دور كايم" إلى ضرورة الدراسة الموضوعية في البحث العلمي.

وأما في المعاجم اللغوية المعاصرة عرفت الموضوعية "مصدر صناعي من موضوع: حيادية وعدم تحيز" موضوعية حكم: خالٍ من أيّ تحيز خاصّ".

والموضوعية: (في الفلسفة) مذهب فلسفي يرى أنّ المعرفة ترجع إلى حقيقة غير الذات المدركة، وعكسها الذاتية: وهي مصدر صناعي من الذات: نزعة ترمي إلى تحكيم الذات في الحكم أو تكوين الآراء والانطباعات (عمر، 1429 هـ - 2008 م، صفحة 2457/3).

إن الكلمة الموضوعية في المعاجم القديمة لها عدة معاني أهمها الخفض والوضع والترك والخط والاسقاط والتثبيت والبناء وضمير والاتفاق والخساره والسرعة والاخلاق وهذه المعاني ليس لها علاقة بالمعنى الاصطلاحي متداول للموضوعية. وذلك راجع الى ان أصل الكلمة الموضوعية ليس عربيا.

دخول مصطلح "الموضوعية" إلى اللغة العربية يُعتبر مثالا على الاقتراض اللغوي، وهو ظاهرة طبيعية تحدث بين اللغات نتيجة للتفاعل الثقافي والتبادل المعرفي. عندما يتم اقتراض مصطلح جديد، قد يكتسب معاني جديدة أو يتطور معناه ليناسب السياق الثقافي الجديد. هذا ما حدث مع مصطلح "الموضوعية"، حيث اكتسب معنى اصطلاحيا جديدا في اللغة العربية يختلف عن معانيه اللغوية القديمة. وفي المصطلح يطلق هذا اللفظ للدلالة على منهج أو الأسلوب المجرد عن المؤثرات الذاتية.

لأن ذات الشيء هي حقيقته الجوهرية المجردة، أما موضوعه فهو صفاته أو "أعراضه" حسب مصطلحات المناطق

وقد استخدم هذان الاصطلاحان "الذاتية والموضوعية" في مناهج البحث العلمي للتعبير عن أسلوبين أو منهجين متضادين أحدهما يعتمد على النظرة الشخصية للباحث "الذاتية" والآخر يعتمد على الحقائق المجردة "الموضوعية" ولم يستعمل هذا الاصطلاح من قبل عند المسلمين وإنما استعملوا لفظ "الأمانة والإنصاف والصدق والعدالة" كما سيأتي بيانه.

2- إشكالية المصطلح:

إن الموضوعية كلمة شديدة التعقيد، تحتمل جوانب أوجه متباينة، وأن يستبعد الباحث العوامل الذاتية من عمله العلمي، وينبغي عليه أن يطرح مصالحه وميوله واتجاهاته الشخصية جانبا وأن يعالج موضوعه بتجرد تام فالموضوعية المطلقة الخالية تماما من الذاتية باعتبارها تحيزا سلبيا مطلقا هو تقويم غير دقيق عند كثير من الباحثين، بل هو ظلم لكيان الإنسان ذي العقل المبدع، وتقزيم

لدور العقل واعتباره مجرد مرآة تعكس ما يقع على سطحها كما يرى رانكه، بل إن التحيز أمر حتي لا يمكن للبشر تجنبه.

بل إن عمل المؤرخ عبارة عن تسجيل لأحداث التاريخ حسب فكرة معينة وحسب نظرية معينة ومحاولة استقرار التاريخ حسب منهج معين.

ومن المؤرخين من يرى أن الذات هي محور المعرفة، وليس الموضوعية، لأنه من المتعذر أن يتفق المؤرخون في دراسة موضوع واحد، لأنه من الصعب أن يتحرر المؤرخ من العاطفة الذاتية، ومن انتمائه القبلي، والحزبي، والعقدي، وغيره. ويرى المؤرخ البريطاني "هربرت بتريفيلد" أن التاريخ بدون تحيز من الممكن أن ينظر إليه كمجرد تاريخ ممل، فالتحيز يثير الشبهة القراء وشبهة النقد.

ويرى الكثير من الباحثين أن عمل المؤرخ لا بد أن يظهر فيه إحساساته ومشاعره، وأفكاره، وعقله، حيث يساعد ذلك التوغل في ملامسة مشاعر الناس وعقولهم، وطرق تفكيرهم الذي هو بصدد الكتابة عنهم وإلهمهم، كما أن الإفراط في الموضوعية له عيوبه الكثيرة والجسمية، وما على المؤرخ إلى أن يتجنب الميول والأهواء وكذلك الموضوعية التي لا لون لها. أي يبتعد الباحث عن الإسقاط القهري، ونكون له القدرة على الانفصال المكاني والزمني ليعيش مكان الحادثة وزمانها (الحويري، 2001، الصفحات 199-201).

ولكي نتجنب استبدال الحقيقة التي لا تستطيع العواطف التلاعب بها يجب أن نمتنع عن إعطاء الشعور بالملائم المعاصر، وأن نأخذ بعين الاعتبار التحركات العلمية عند الناس الماضي.

الرؤية الرانكية للموضوعية:

يرى المؤرخ الألماني "ليو بولد فون رانكه" (1795-1886) الذي يوصف في الغرب بـ"أبي التاريخ الحديث" ضرورة التزام بالموضوعية التامة في كتابة التاريخ، وأصل في كتبه بما يعرف بالرؤية الرانكية :

-أن هناك واقعاً تاريخياً له وجود فعلي خارج عقل المؤرخ ومستقل عنه

-أن المؤرخ يتسطيع تعرف ذلك الواقع ووصفه على نحو موضوعي "كما حدث الفعل" وهي عبارة رانكه المشهورة.

-أن المؤرخ قادر على أن يكون "حكماً نزيهاً" في كتابه التاريخ من خلال تحييد واقعه المعاصر، فضلاً عن تحييد كل مصالحه وانحيازاته الدينية والسياسية والفلسفية

والاجتماعية والأخلاقية والجمالية والجنسية، تعني قدرة المؤرخ على التمييز الصارم بين الحقيقة والقيمة أو بين الخبر والتأويل، أنه يجد أدات الماضي في المصادر التاريخية ولا يصنعها أي شكل.

-أن موضوع التاريخ يمكن تعرفه من خلال جهد فكري عقلائي من دون حاجة إلى مجاوزة الواقع تقوم هذه "العقيدة الموضوعية" على افتراضات أساسية قد يكون أهمها ما يطلق عليه "نظرية البرهان من خلال المطابقة" وهي تفترض مطابقة النص التاريخي للواقع التاريخي.

وهكذا فإن الحقيقة التاريخية واحدة يمكن التوصل إليها بموضوعية صارمة ووصفها في شكل سردي، اعتماداً على وثائق الأرشيفات وقراءتها (أي الوثائق) نقدياً.

لم يكن باعث رانكه على ملازمة الحياد التام ومجافاة إصدار الأحكام فتور في العاطفة أو جمود في الإحساس وإنما كان مصدر تلك الروح الدينية العميقة التي كانت مستولية على نفسه إذ كان يرى أن البشر ليس من حقهم إصدار أحكام على الحركة التاريخية لأنها من تدبير العناية الإلهية التي توجه كل أحداث التاريخ نحو غاية لا يعلمها إلا الله (الحوي، 2001، صفحة 214).

نقد الرؤية الرانكية:

لقد بدأ نقد أفكار رانكه في ألمانيا نفسها مع الفيلسوفين الألمانين فريدريك نيتشه (1844-1900)، وفيلهلم دلتاي (1833-1911) اللذين رفضا فكرة الموضوعية، بل أصر دلتاي على أهمية التأويل الذي يرتبط بواقع المؤرخ ارتباطاً حتمياً فلكي يفسر المؤرخ التاريخ، لا مفر من أن يبدأ بعض الأفكار، ثم ينظر في الماضي ليعود مرة أخرى إلى الحاضر وهكذا في عملية تشبه "الدائرة التأويلية".

وقد تقدم أن الباعث لرانكه في إلتزامه للموضوعية هو المذهب الديني وهذا دليل واضح ضد مذهب رانكه في عسر تجرد المرء من ميوله العاطفية الدينية في أحكامه وتحليلاته.

كما أن من الصعب على الإنسان أن يكون خالياً تماماً من التحيزات، فكل فرد يحمل معه مجموعة من القيم والمعتقدات التي تؤثر على رؤيته للأحداث، وهذا ما يفسر تعدد التفسيرات لنفس الحدث التاريخي، وتعليل ذلك بسبب اختلاف وجهات النظر والخلفيات الثقافية للمؤرخين.

3- الموضوعية والذاتية في كتابة التاريخ:

الموضوعية: تُعرّف الموضوعية في العلم، ومنها التاريخ، بأنها "النزاهة في القصد والتجرد من العواطف الذاتية والتحيز الشخصي والدقة في فحص القضايا المطروحة والأمانة العقلية والاستنتاج السليم والشجاعة في متابعة الحجة إلى نتائجها المنطقية التي تعبر عن الحقيقة". بعبارة أخرى، هي محاولة المؤرخ قدر الإمكان تقديم الأحداث كما وقعت، دون تدخل من آرائه الشخصية أو انتماءاته.

الذاتية: على النقيض من ذلك، تُعرّف الذاتية بأنها "انعكاس ذاتية المؤرخ وانتماءاته الفكرية والعقائدية على تقييمه لفترة تاريخية معينة وطغيان ذلك على عملية الكتابة التاريخية دون التزام بالموضوعية أو التثبت من صحة الوثائق التي ينقل منها". أي أن المؤرخ يُخضع الأحداث لوجهة نظره الشخصية، وقد يُحرّفها أو يُشوّهها لتتوافق مع معتقداته.

وقد اختلفت آراء المؤرخين في ضرورة مراعاة الموضوعية في كتابه التاريخ، وتفاوتت قدرتهم في الاستجابة لمطالب الحييدة المطلوبة فالبعض من المؤرخين التزم الطريقة الموضوعية المطلقة في كتابة التاريخ بمعنى أن ينكر المؤرخ نفسه كل الإنكار، ويمسك عن التعبير عن وجهه نظره الخاصة وهذا الفريق هو الذي عرف باسم أصحاب النزعة الموضوعية.

وذهب فريق آخر من المؤرخين إلى إنكار قدرة المؤرخ على إلزام الموضوعية المطلقة، على أساس أنه لا يمكن للمؤرخ أن يتخلص من ذاتيته ويتخطى عن معتقداته ومواقفه الفكرية وهذا الفريق هو الذي عرف بأصحاب النزعة الذاتية.

ويرى فريق ثالث أنه على الرغم من الموضوعية التامة الواجب توافرها في المؤرخ إلا أنه لا يمكن إلغاء شخصية المؤرخ الذاتية بما فيها من أحاسيس ومشاعر والمؤرخ الناجح في نظر هذا الفريق هو الحريص على ألا تطغى عواطفه على حياده وموضوعيته. (الحويري، 2001، صفحة 203)

3-1- التحدي المزدوج:

يُواجه المؤرخ تحديين رئيسيين: الأول هو صعوبة التخلص من التأثيرات الشخصية والعواطف والانتماءات، والثاني هو فهم سياق الأحداث التاريخية في زمانها ومكانها، وعدم إسقاط مفاهيم الحاضر عليها.

فإن المؤرخ لا يمكن أن يتجرد من صفات الذاتية وهذه الصفة الذاتية مزيج من أفكار المؤرخ ونشأته وتربيته وثقافته والبيئة التي يعيش فيها ومدى تأثير هذه الأحداث على نفسه". هذا اعتراف بواقع أن المؤرخ إنسان يتأثر بظروفه وخبراته، ولا يستطيع أن يكون موضوعيًا بشكل كامل.

فمثلاً نجد المؤرخ يوسفوس، الذي "سجل عن نفسه أنه يريد الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة" لم تخلُ كتاباته من انحياز صريح لليهود والعنصر اليهودي وتسجيل ما أسماه بأمجادهم السالفة وذلك لسبب بسيط هو أنه نفسه يهودي وكاهن يهودي بحكم النشأة وامتهانه الكهانة وبحكم مولده في أورشليم". هذا يوضح كيف أن انتماء المؤرخ الديني والقومي قد يؤثر على كتاباته.

الذاتية في كتابه التاريخ:

ذهب فريق من مشاهير المؤرخين مذهباً آخر في كتابة التاريخ وهو أنكار قدرة المؤرخ على الالتزام الموضوعية المطلقة أي يستحيل أن يستقل المؤرخ عن عواطفه وأهوائه وشعوره وذوقه.

وهو مذهب يجعل الذات محور المعرفة، بل لا يوجد مؤرخ يكتب تاريخ بلاده. مجرد عن الموضوعية، فكل كتابة تاريخية تحمل في طياتها بصمة شخصية المؤرخ وتأثيرات بيئته

2-3- الذاتية الإيجابية:

وعلى الرغم من أن الذاتية تُعتبر غالباً عائقاً أمام الموضوعية، إلا أن رأي بتريفيلد يُشير إلى أن بعض التحيز قد يكون مُحفزاً للقراءة والنقد، ما يُساهم في إثراء النقاش التاريخي. بالطبع، يجب أن يكون هذا التحيز واضحاً ومعروفاً، وليس مُقنعاً تحت ستار الموضوعية. -العلاقة بين الموضوعية والذاتية:

أن العلاقة بين الموضوعية والذاتية في التاريخ معقدة، وأن تحقيق الموضوعية الكاملة قد يكون صعباً. ومع ذلك، يجب على المؤرخ أن يسعى جاهداً لتحقيق أكبر قدر ممكن من الموضوعية من خلال البحث الدقيق، وفهم السياق التاريخي، وتجنب التحيزات الشخصية. كما أن بعض التحيز قد يكون له دور إيجابي في إثارة النقاش والنقد صفات الباحث المؤرخ عند المسلمين:

قال تاج الدين السبكي: "...لابد أن يكون المؤرخ عالماً، عدلاً عارفاً بحال من يؤرخ له ليس بينه وبينه من صداقة ما قد يحمله على التعصب له ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه وربما كان الباعث له على الضعة من أقوام مخالفة العقيدة وإعتقاد أنهم عاى ضلال فيقع فهمهم أو يقصر في الثناء عليهم لذلك".

وقال أبوه في شروط المؤرخ: يشترط في المؤرخ: ١- الصدق، ٢- وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى، ٣- وان لا يكون ذلك الذي نقله اخذه في المذكرة وكتبه بعد ذلك، ٤- وان يسمى المنقول عنه. (السبكي، 1413هـ، صفحة 23/2)

-استحالة الموضوعية المطلقة:

أن الموضوعية الكاملة قد تكون مستحيلة، وأن ما يُمكن تحقيقه هو درجة من الموضوعية، من خلال بذل الجهد في البحث عن الحقائق، ومحاولة فهم وجهات النظر المختلفة، وتجنب الأحكام المسبقة.

ومع ذلك، عند ذكر "الموضوعية"، لا أقصد أن المؤرخين قادرون بطريقة ما على تحقيق هذه الأوهام. كما صرح تشارلز بيرد بذلك في عام 1935، فإن المؤرخ "لا يجلب إلى الوثائق الجزئية التي يعمل عليها عقلاً محايداً مثاليًا ومصقولاً يتم فيه عكس الماضي المتدفق عبر وسيلة الوثائق كما كان بالفعل. مهما كانت أعمال التطهير التي قد يقوم بها المؤرخ، فإنه لا يزال إنساناً، مخلوقاً من الزمان والمكان والظروف والاهتمامات والميول والثقافة (بيرد، 1935، صفحة 83)

يمكن القول إن الموضوعية في الكتابة التاريخية هي أمر نسبي، وليس مطلقاً. يمكن للمؤرخ أن يسعى جاهداً لتحقيق أعلى درجة ممكنة من الموضوعية من خلال التحقق من المصادر، وتجنب التحيزات الشخصية، والاعتراف بحدود معرفته

-المناظير المختلفة لفهم الموضوعية في العلوم الإنسانية:

إن أهم المحاور الأساسية التي تدور حولها أهم مواقف الباحثين في العلوم الإنسانية من الموضوعية هي:

الواقعة (Fact): "تقوم الموضوعية من الخارج في الواقعة". يُركز هذا المحور على الواقع الخارجي المستقل عن وعي الباحث، ويعتبر أن الموضوعية تتحقق من خلال وصف هذا الواقع كما هو.

الماهية (Essence): "تؤسس من الداخل في الماهية". يُركز هذا المحور على الجوهر أو الحقيقة الكامنة وراء الظواهر، ويعتبر أن الموضوعية تتحقق من خلال الكشف عن هذه الماهية.

البنية (Structure): "تتكامل من الخارج والداخل معا في البنية". يُركز هذا المحور على العلاقات والأنظمة التي تُشكل الظواهر، ويعتبر أن الموضوعية تتحقق من خلال فهم هذه البنية.

وهذه المحاور ليست مجرد جوانب مُتكاملة، بل هي "منظور مستوعب ونظرة شاملة تنطلق من أسسها الخاصة التي لا يُمكن ببساطة أن تتألف أو تهادنا مع غيرها من الأسس". هذا يعني أن كل محور يُمثل وجهة نظر مُستقلة حول الموضوعية، ولا يُمكن دمجها بسهولة مع المحاور الأخرى.

ربما اختلفت دلالات المصطلحات والألفاظ عند كل موقف فالواقعة والماهية والبنية لا تعني نفس الشيء عند هذه المواقف". فهذا يؤكد على أهمية فهم السياق الذي تُستخدم فيه هذه المصطلحات، حيث قد تحمل معاني مُختلفة باختلاف المنظور.

أن قضية الموضوعية في العلوم الإنسانية مُعقدة للغاية، وأن هناك مناظير مُختلفة لفهمها. هذه المناظير تُركز على جوانب مُختلفة من الواقع، وتُقدم تعريفات مُختلفة للموضوعية.

المنظور الذي يُركز على الواقعة: يرى أن الموضوعية تعني الحياد التام والوصف الدقيق للواقع الخارجي. هذا المنظور يُشبه المنظور الوضعي في العلوم الطبيعية.

المنظور الذي يُركز على الماهية: يرى أن الموضوعية تعني الكشف عن الجوهر أو الحقيقة الكامنة وراء الظواهر. هذا المنظور يُشبه المنظور المثالي في الفلسفة.

المنظور الذي يُركز على البنية: يرى أن الموضوعية تعني فهم العلاقات والأنظمة التي تُشكل الظواهر. هذا المنظور يُشبه المنظور البنيوي في العلوم الاجتماعية.

من المهم فهم هذه المناظير المُختلفة عند مناقشة قضية الموضوعية. فما يُعتبر موضوعياً من منظور معين قد لا يُعتبر كذلك من منظور آخر.

فقد يرى باحث يتبنى المنظور الذي يُركز على الواقعة أن دراسة الآراء الشخصية غير موضوعية، لأنها تعتمد على الذاتية. بينما قد يرى باحث يتبنى المنظور الذي يُركز على

الماهية أن دراسة الآراء الشخصية ضرورية للكشف عن القيم والمعتقدات التي تُحرك الأفراد، وبالتالي فهي تُساهم في فهم الواقع بشكل أعمق.

-مستويات الموضوعية في العلوم الإنسانية:

إن الخلط بين دلالات الموضوعية ومستوياتها يحمل النصيب الأكبر من الإخفاق في بحثها، هذا يعني أن عدم التمييز بين الجوانب المختلفة للموضوعية (مثل الدلالات القيمية والمعرفية والإبستمولوجية والنفسية والثقافية، والمستويات الأنطولوجية والميتودولوجية) يُؤدي إلى مشاكل كبيرة في فهمها ومناقشتها.

عندما يتحدث شخص عن "الموضوعية"، يجب أن نُحدد بدقة ما الذي يعنيه: هل يتحدث عن الموضوعية بمعنى الحياد التام وعدم إدخال القيم الشخصية في البحث؟ (الدلالة القيمية)

أم يتحدث عن إمكانية معرفة الواقع كما هو؟ (الدلالة المعرفية والإبستمولوجية) أم يتحدث عن استخدام مناهج علمية صارمة؟ (المستوى الميتودولوجي) عندما يكون هناك فهم مُشترك لمعنى الموضوعية، يُصبح النقاش أكثر وضوحًا وإنتاجية.

قد يقول شخص إن "العلوم الإنسانية لا يُمكن أن تكون موضوعية لأنها تُدرس الإنسان الذي يتميز بالذاتية". هذا القول قد يكون صحيحًا إذا كنا نتحدث عن الموضوعية بمعنى الحياد التام وعدم إدخال أي تحيزات شخصية. لكنه قد يكون غير صحيح إذا كنا نتحدث عن الموضوعية بمعنى استخدام مناهج علمية صارمة ومُحاولة فهم الظواهر الإنسانية بشكل منهجي.

-بدائل الموضوعية عند مؤرخي المسلمين:

لقد دعا القرآن إلى القسط والإنصاف والعدل والتجرد، وهو بذلك تناول هذا المصطلح. الذي تقدم أنه حادث على اللسان العربي. إلا أنه عبر عنها بمفردات أخرى كالقسط والعدل والاستقامه والأمانة وبين أهم أسسها وضوابطها هذا من جهه ومن جهه أخرى فالقرآن الكريم قد حاز السبق في تطبيق هذه المعاني.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "والله تعالى يحبُّ الإنصاف، بل هو أفضل جليّة تحلّى بها الرجل، خصوصاً مَنْ نصَّب نفسه حَكَمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: 15]" [5].

والله أمر بالعدل في غير ما آية؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 42]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58].

فيمكن القول إن القرآن يُقدم مفهومًا شاملاً وعميقاً للموضوعية يتجاوز مجرد الحياد السليبي، ليشمل الالتزام بالحق والعدل والإنصاف، انطلاقاً من الوازع الديني والأخلاقي. القرآن أمر بعدم تعميم الأحكام والإنصاف بعض أهل الكتاب قال تعالى ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: 75]

كما أن السنة النبوية حوت العديد من الأحاديث والآثار التي ترسخ لمعاني الموضوعية والعدل والإنصاف ومجانبة الهوى والذاتية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّعَمَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" وعن عبدالله بن عمرو قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الْمُقْسَطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ - وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَمَا وُلُّوا)).

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قوله: ((وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا)). وقال عمار رضي الله عنه: "ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ، فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ: الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ".

قال ابن عبد البر رحمه الله: "من بركة العلم وآدابه: الْإِنْصَافُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يُنْصَفْ، لَمْ يَفْهَمْ وَلَمْ يَتَفَهَّمْ". (البر، 1994 م، صفحة 530/1)

وقال ابن حزم رحمه الله: "أَفْضَلُ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَطْبِعَهُ عَلَى الْعَدْلِ وَحِبِّهِ، وَعَلَى الْحَقِّ وَإِثَارِهِ" (حزم، 1980، صفحة 357).

كما أن الذاتية تقابل الموضوعية في اصطلاح الغربيين، فإن العدل والإنصاف يقابله الهوى وقد يكون خفياً وهو ما يسميه الإمام الملعلي "مزلق الهوى": فقال رحمه الله: "وبالجملة، فمسالك الهوى أكثر من أن تُحصى، وقد جرّبت نفسي أنني زُبماً أنظر في القضية زاعماً أنه لا هوى لي فيها، فيلوح فيها معي، فأقِرّه تقريراً يُعجبني، ثم يلوح لي ما يَخْدش في ذاك المعنى، فأجِدني أتبرّم بذلك الخادش، وتُنازعني نفسي إلى تكُلّف الجواب عنه، وغَضّ النظر عن مناقشة ذاك الجواب، وإنما هذا؛ لأنني لما قرّرت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجّبني، صرّت أهوى صحّته، مع أنه لم يعلم بذلك أحدٌ من الناس، فكيف إذا كنت قد أدعته في الناس، ثم لآخ لي الخدش؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش، ولكن رجلاً آخر اعترض عليّ به؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه؟

هذا، ولم يكُلّف العالم بالأى يكون له هوى؛ فإن هذا خارج عن الوسع، وإنما الواجب على العالم أن يُفَتِّش نفسه عن هواها؛ حتى يَعرفه، ثم يَحْتَرِز منه، ويُعْمِن النظر في الحق من حيث هو حق، فإن بَانَ له أنه مخالفٌ لهواه، أثار الحق على هواه"، ثم قال رحمه الله: "والعالم قد يُقَصِّر في الاحتراس من هواه، ويُسامح نفسه، فتَمِيل إلى الباطل، فيَنصَره، وهو يتوهّم أنه لم يَخْرُج من الحق، ولم يُعَادِه، وهذا لا يكاد ينجو منه إلاّ المعصوم، وإنما يتفاوت العلماء، فمنهم: مَنْ يكثر منه الاسترسال مع هواه ويفحش؛ حتى يَقْطع مَنْ لا يعرف طباع الناس ومقدار تأثير الهوى بأنه متعمّد، ومنه مَنْ يقل ذلك ويخف" (الملعلي، 1984، صفحة 32).

بل حتى تناول شيشرون أكثر هذه الميزات أساسية في مقطع شهير من كتابه "دي أوراتور"، حيث يسأل أحد شخصياته:

"فمن الذي يجهل أن القانون الأول في كتابة التاريخ هو ألا يجرؤ المؤرخ على قول أي كذب، والقانون التالي هو أن يكون شجاعاً بما فيه الكفاية ليقول الحقيقة كاملة؟ أيضاً، أنه يجب ألا يكون هناك أي شك في التحيز في كتاباته، أو العداوة الشخصية؟".

- الفرق بين الموضوعية والحيادية:

الحيادية: هو عملية الحكم الناتجة من الموضوعية

الموضوعية: هي المنهجية التي يتم بها الدراسة وفق قضية ما.

الحيادية والموضوعية مكملان لبعضهما البعض وهي ظاهره صحيه في بعض الاحيان وايجابيه تجنب الضرر وقد تكون سلبيه وغالبا ما تكون الحيادية هي الأفضل.

الفرق بين منهج البحث التاريخي، ومنهج البحث العلمي :

العلوم الطبيعية: تعتمد على المنهج التجريبي، حيث يتم صياغة الفرضيات واختبارها بشكل منهجي، ويتم التوصل إلى نتائج قابلة للتكرار والتحقق.

العلوم الإنسانية: تستخدم مجموعة متنوعة من المنهجيات، مثل المنهج التاريخي، والمنهج المقارن، والمنهج النقدي. تعتمد هذه المنهجيات على تحليل النصوص، والمقابلات، والملاحظات المباشرة، وغيرها من الأدوات البحثية.

دقة النتائج:

العلوم الطبيعية: تتميز بدقة عالية في نتائجها، حيث يمكن قياس المتغيرات بشكل دقيق ووضعها في نماذج رياضية.

العلوم الإنسانية: تنقسم النتائج في العلوم الإنسانية بقدر أكبر من التنوع والتعقيد، وقد تكون أقل دقة من الناحية الكمية، ولكنها قد تقدم رؤى أعمق حول الظواهر الإنسانية.

أسباب الاختلاف في دقة النتائج:

طبيعة الظواهر المدروسة: الظواهر الطبيعية تكون أكثر قابلية للقياس والتجريب من الظواهر الإنسانية التي تتأثر بعوامل نفسية واجتماعية وثقافية معقدة.

الأدوات البحثية: الأدوات المستخدمة في العلوم الطبيعية أكثر دقة وتطوراً من الأدوات المستخدمة في العلوم الإنسانية.

التحيز البشري: يؤثر التحيز البشري على جميع أنواع البحث، ولكن تأثيره قد يكون أكبر في العلوم الإنسانية نظراً لطبيعة الموضوعات المدروسة.

فالموضوعية في العلوم الطبيعية تختلف عنها في العلوم الإنسانية الاجتماعية والأدب والفن، فالموضوعية في العلم غير الموضوعية في الفلسفة.

وفي الإلتزام بالموضوعية يختلف العلم عن الفن في كل صوره، لأن الفن مبني على المشاعر والأحاسيس وعلى العواطف، وأما العلم فمبني على التجربة والملاحظة، علماء الطبيعة يبحثون في المادة والمادة حيادية، أما المؤرخ فإنه يبحث عن أمور حيوية قد لا تنفصل عن العاطفة".

ولا يوجد باحث في التاريخ يمكنه أن يثق بأقوال غيره بنفس الثقة التي يثق بها الباحثون في العلوم الطبيعية بعضهم ببعض وذلك لأن الباحث في التاريخ لا يمكنه ان يعرف كل التفاصيل العملية وجميع الطرق التي اتبعها غيره للوصول إلى النتائج التي استخلصها ولا شك أنه يوجد قدر من الثقة يزيد أن ينقص بين الباحثين في التاريخ. في زمن من واحد أو في أزمان مختلفة ولكنها لا تبلغ ذات الثقة التي توجد بين الباحثين في العلوم الطبيعية (عثمان، 2005، صفحة 163).

فإن من أهم الأمور التي دعت إلى تطبيق المنهج العلمي في الدراسات الاجتماعية الرغبة الملحة في الوصول إلى الحقائق هي "الموضوعية".
الموضوعية النسبية:

قال بول ريكور في كتابه " التاريخ والحقيقة": ننتظر من التاريخ نوعاً من الموضوعية التي تناسبه"

يدعي بول أن توازن الفضائل اللازمة لإجراء دراسة تاريخية ناجحة يختلف وفقاً لعوامل مثل النوع النصي وطبيعة البحث (Paul, 2012, pp. 369-388).

فالسعي وراء "الموضوعية المطلقة" قد يكون غير واقعي، لكن هذا لا يعني أنه يجب التخلي تماماً عن البحث عن الحقيقة التاريخية.

ويقترح أن يتجاوز المؤرخون وصف الحقائق التاريخية الفردية، وأن يسعوا لفهم الروابط العميقة والروح الكامنة وراء هذه الحقائق. وهذا، بحسب الكاتب، لا يعني تفسير التاريخ من خلال نظريات فلسفية، بل هو في الواقع نوع من "الموضوعية" التي تهدف إلى تقديم سرد صادق وشامل للحقيقة التاريخية.

خاتمة:

مما تقدم ظهر أن قضية الموضوعية في العلوم الإنسانية يشوبها كثير من التعقيد وقد يرجع ذلك إلى أصلها فلسفي نظري غير تطبيقي، كما تطبيقها متعسر حتى عند أصحاب النزعة الموضوعية ، وإن الأسلم في ذلك هو كما ادعاه بول ريكور من أن كل نص له حكمه الخاص وذوقه المناسب فمن المواضيع ما يمكن تطبيق الموضوعية فيه ومن النصوص ما لا يمكن تطبيقها كما أن الموضوعية نسبية .

فلا يمكن لمسلم أن يزعم أنه سيكون موضوعي ويلتزم الحياد أمام النصوص الدينية ويجعلها قابلة للنقد شأنها شأن النصوص الأخرى فهذا لا يتصور من مسلم بعدما علم

صدق نسبت النصوص إلى الوحي، كما أنه لا يمكن للمؤرخ أن يكون موضوعيا ويسعى غزاة بلده شهداء ونبلاء إلى غير ذلك مما تقدم.

قائمة المراجع:

بن حزم ع.. (1980). رسائل ابن حزم الأندلسي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

باوادي ع. ا. أ. م.. (2018). الموضوعية في دراسة الأديان. مجلة أفكار، 242-296.

بن عبد البر ي. (1994). جامع بيان العلم وفضله. السعودية: دار ابن الجوزي.

تشارلز ب. (1935). ذلك الحلم النبيل. المجلة التاريخية الأمريكية، 83-112.

عبد الحميد عمر أ. م.. (2008). معجم اللغة العربية المعاصرة. الأردن: عالم الكتب.

المعلمي ع. ا. (1984). التنكيل بما تأنيب الكوثري من الأباطيل. سورية: المكتب الإسلامي.

الحوييري م. (2001). منهج البحث في التاريخ. مصر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.

السبكي ع. ا. (1413). طبقات الشافعية الكبرى. سورية: هجر للطباعة والنشر والتوزيع.

عثمان ح. (2005). منهج البحث التاريخي. مصر: دار المعارف.